(نقول) أننا كنا نتوقع براهين عقلية تنقض الحجج التي اوردناها في ردنا الاول (المشرق ٢ : ٧٥٢) فعاد جناب الكاتب يذكرنا « بالشواهد الدالة على تعقل الحيوان » التي عرضها بمقالته السابقة . كأننا نجهل او لم نسلم له صريحاً (راجع مقالتنا ص ٧٥٤) بان في العجمادات دلائل كثيرة تدل على تباهتها وذكائها . وانما ننكر عليه كل النكير انّ هذه الدلائل تنبئ بعقل او مبدإ عقلي في الحيوان . اثبتنا ذلك ببينات ناطقة وشواهد صادقة لم ينقض منها جناب الكاتب ذرّة واحدة بل ولم يأتِ لها بذكر . أفهكذا يكون فنّ الجدال ؟ فليُنصف المنصفون

اما قوله « انّهُ لا يمكننا ان نبيّن الى اي حدّ تنتهي الغريزة في الحيوان » فذلك محض سقطة . كما لو قلنا « انّهُ لا يمكننا ان نبيّن الحاجز الموجود بين النبات والحيوان فاذن مبدأ حياة الحيوان والنبات واحد » أفلا يرى جناب البك ان النتيجة تخرج عن المقدّمات . فان لم يمكن بيان هذا الحدّ انما يكفي ان نميّز بين قوى الحيوان وقوى النبات فانّ للنبات النموّ والتناسل وللحيوان الحسّ والقوى المشتركة كالمخيّلة والذاكرة ولا يشتبه الامر على احد من البشر . وكذلك نقول عن سليقة الحيوان والعقل البشري فانّ لكل منهما خواصّ يميّزها كل انسان وان سلّمنا بعدم علمنا بالحدّ الذي يمكن السليقة ان تبلغهُ . وعليهِ فقد سقطت حجّة جناب البك ونعيد الامل بان ينظر في ادلّتنا السابقة ويجيبنا عنها . ولهُ الفضل سلفاً

السفر العَجَب الى بلاد الذهب

للاب اميل رينو اليسوعي (تابع لما سبق)

فلمّا رأى المسافرُ الهنديّ عند أقدامهِ قال :

لا تظن انّ بكاءك يخدعني أيها الشقيّ فانكم تريدون ان تدفنوني حيّاً في هذه المضايق كما فعل امثالكم بغيري فذهبوا ضحيّة اطماعكم

قال هذا واطرق صامتاً وسكت الجميع معهُ . . .

وبينما هم كذلك اذا بصدى صوت بشريّ دوت لهُ الجبال كأنهُ صوت ملهوفٍ آنس من الحياة يطلب عوناً في بلائهِ

فنصت الكل ليعلموا ما الامر الّا انّ الصوت انقطع عنهم فلم يعودوا يسمعوه ثانية . . . فقال المسافر للهنود:

أسمعتم . . لعلّهُ مسافر مثلي ضلّ السبيل في هذه المهاوي . . وا لهفي عليه فان صوتهُ اثار في فؤادي لوعةً كأنّهُ سهم نفذ في سويداء قلبي . . . بل ويلًا لي انا الذي وقعت في مثل اخطار هذا المنكود الحظّ

وبينا هو يقول ذلك اذ لاحت منهُ نظرة الى الثلج فوجد آثار اقدام حديثة . فصرخ من وقتهِ: « سيروا امامي متّبعين هذه الآثار فلا ريب انها تبلغ بنا الى حيث ضلّ المسكين الذي سمعنا صوت صراخهِ »

قال هذا ودفع امامهُ الهنود وهو لا يزال يتهدّدهم بفردهِ ان لم يسيروا طوعًا

واخذ المسافر يقتفي الآثار على الثلج ويسير ركضًا الى الهاوية وهو لا يدري . فما كان غير قليل حتى انهار الثلج وسمعت بغتةً ضجّة عظيمة اشدّ من الاولى هولًا فارتدّ المسافر حالًا الى الوراء وكانت قد انسلخت وقتئذٍ قطعة من الثلج فهبطت الى القعر وكان لها دويّ عظيم دلّ المسافر على انّ هناك هاوية كبيرة

هناك هناك . . . في تلك الهاوية كان قد وقع مسافر نظيرهُ في طلب الذهب ولولا الدويّ المذكور لكان هو لحق بسالفهِ . هناك . . . كان يريد الادلاء ان يتركوهُ . . . ولو لم يهدّدهم بالرصاص لما رجعوا عن قصدهم الخبيث . ثمّ انّ المسافر اخذ يفتكر في نفسهِ قائلًا: « اذا كان هؤلاء الهنود قد عدلوا في الظاهر عن مغادرتي لخوفهم من القتل فمن يضمن انهم لا يتركونني متى جنّ الليل وانا نائم لا اعي على شيء » . ونظر بعدئذٍ الى الهاوية فشاهد جسمًا يغوص في الهواء فظنّ انّ بصرهُ يخدعهُ ولكنّهُ حدّق ليتبيّن ما يراهُ فشاهد حقيقةً جسم انسان يتذبذب في الفضاء

وحينئذٍ ظهرت علامات القلق على وجه احد الهنود . وكان هذا الهندي قد صاحب المسافر من نصف يوم وقد صادفهُ مع اثنين من رفقائهِ فعرضوا عليهِ خدماتهم وادّعوا انهم راجعون من ألاسكا

والتفت الغريب الى الهندي فرأى سحنتهُ متغيّرة فعلم انهُ هو هو الذي كان قد شهر عليهِ خنجرهُ من مدّة قريبة ليقتلهُ وعلم الهندي انّ المسافر قد عرفهُ فاسرّ الى رفقائهِ بعض كلمات وما كاد يتمّها حتى اجتمعوا جميعًا حول المسافر المسكين وخناجرهم

مسلولة وهم يتهدّدونهُ بالقتل. امّا المسافر فمد يدهُ الى غدّارتهِ بثبات جاش ووقف ينتظرهم ثمّ رمى احدهم فاصابت الرصاصة كتفهُ فوقع جريحًا وكان احدهم قد جاء من ورائهِ زحفًا قاصدًا ان يُغمد فيهِ خنجرهُ بينما يكون مشتغلًا بقتال الاثنين الباقيين الّا انّ المسافر تنبّه لهُ فتركهُ حتى اقترب ورجّه اليهِ رصاصة فجندلتهُ على الارض صريعًا

وكان ان هنديين وفدا حينئذٍ لنصرة اخوانهم على المسافر وكانا خفيفي الحركة فتسلّقا الى صخر هناك ورقفا وراءهُ واخذا يرميان الغريب بالحجارة فاصابهُ حجر في جبهتهِ فجرحهُ وخرج الدم متدفقًا. فلمّا شاهدهُ الهنديان الباقيان تحتُ مجروحًا عجما عليهِ فاطلق عليهما الرصاص من غدّارتهِ تباعًا حتى انعقدت سحابة من دخان البارود فوق الفريقين. ثمّ انتشب القتال بين الفريقين جسمًا الى جسم فكان المسافر يدافع عن نفسهِ دفاع اليأس والهنديان يشتدّان كلّ ما طال الوقت. ولمّا رأى الهنديّان الآخران اللذان كانا قد تسلّقا الى الصخر انّهُ لم يبقَ عليهما خوف من الرصاص نزلا بسرعة وطفقا يعاونان رفيقيهما على قتال المسافر الذي كان اذا اتّقى ضربة احدهم لا يسلم من ضربة الآخر

الفصل التاسع

في تلاقي الاعداء

وبينما كان المسافر في ضيق شديد وقد اوشك الهنود ان يفتكوا بهِ اذ انفتح باب الفرج لانهُ ما شعر بالهنود الّا وقد اطلقوا سوقهم للريح هاربين ملتمسين النجاة. امّا المسافر فما كاد يصدّق ما يرى فاخذ يتطلّع حولهُ ويحدق النظر ليرى ما السبب الذي حمل اولئك الهنود على الهرب فلم يبصر شيئًا. واخيرًا شاهد قافلة قد طلعت من المضيق فعلق يصرخ باعلى الصوت: « اليَّ اليَّ هلمّ الى مساعدتي ». فلم تسمع القافلة صوتهُ بل ظلّت سائرةً. وكان قد بقي معهُ غدّارتان فاطلق بهما عدّة طلقات متتابعة استلفاتًا لانتباه القافلة وهو ينادي ويصرخ: « هلمّ لمساعدتي هلمّ اليَّ »

فما كان غير ثانيةٍ او ثانيتين حتى وقفت القافلة واخذت تتنصّت الى موضع الصوت. وكانت القافلة تتركّب من ثلاثة حمّالين يتقدّمهم دليل بيدهِ عصًا طويلة ومسافر ذو قامةٍ معتدلة لابس برنيطة عريضة الجوانب. فدارت ببطء حول الجبل حتى انتهت اخيرًا الى محل اللهيف وهكذا تمّت نجاة المسافر. واما صاحب البرنيطة العريضة فتقدّم

ثمَّ انهُ وقف فجأةً ولاح عليهِ ان هزَّة فرح عظيم اخذتهُ فخفض بحدة جوانب برنيطتهِ فوق عينيهِ وهو يقول همسًا: « هو . . . هنا !! »

الَّا انَّهُ كان قد تقدَّم كثيرًا بحيث تعذَّر عليهِ الرجوع وشعر ان الهنود مستعدّون لمغادرتهِ او للثوران عليهِ ورأى جثَّتين ملقاتين على الارض وهما تختبطان بالدماء. وشاهد الغدَّارات تلمع في منطقة المسافر

وكان المسافر قد اتى اليهِ وجعل يخبرهُ عمَّا جرى لهُ من الحوادث وكيف ضلَّ الطريق وكيف مكر بهِ الادلَّاء. وهمّوا بقتلهِ ثم اراهُ الجراح التي أُصيب بها وكانت كلها لحسن الحظّ غير خطيرة. وكان صاحب البرنيطة العريضة يسمعهُ وهو ناكس البصر وقائل في نفسهِ: « انهُ لم يعرفني ولا يستطيع ان يعرفني ومع ذلك فلنتنظر ونرَ ما يكون ». واخيرًا التفت اليهِ قائلًا:

هل انت آتٍ من مدينة جونو ؟ والى اين تذهب ؟

— نعم واني سائر الى داوسون . ولعلَّك أنت ذاهب اليها ايضًا ؟

— لا انا قاصد « فورتي ميل »

— بما انَّ الادلَّاء والحمَّالين الذين كانوا معي قد تركوني تضطرّني الحال للالتجاء اليك

وكان صاحب البرنيطة محوّلًا رأسهُ ومشتغلًا بالنظر الى الهاوية فظنَّ المسافر انهُ لم يسمعهُ فكرَّر عليهِ مقالتهُ. امَّا صاحب البرنيطة فلم يجاوبهُ على شيء. ولكنَّهُ نادى بالهنود الذين معهُ آمرًا اياهم بالسير. وحينئذٍ انتبه المسافر من غفلتهِ وحدَّق البصر في صاحب البرنيطة فتذكَّر انَّهُ يعرف الرجل لكن لم يتذكر اين شاهدهُ. وكان هذا مُقبلًا على السير اذ لاحت من المسافر التفاتة الى الهاوية فصرخ بصوتٍ هائل قائلًا: « يا الله ما هذه الجثة المعلَّقة في الفضاء ». ولمَّا رآهُ يتشنَّج المرَّة بعد المرَّة قال: « كلَّا انهُ حيٌّ وليس بميت ولكن كيف السبيل لانقاذهِ ». والتفت المسافر الى صاحب البرنيطة قائلًا: « أترى هذا الجسم المعلَّق في الفضاء ». واشار اليهِ بيدهِ

— وماذا يهمّني منهُ

— انهُ حيّ فقد رأيتهُ يتحرَّك

— واذا كان حيًّا أتظنّ انَّهُ يمكن انتشالهُ ؟

— نعم ذلك ليس بمستحيل بواسطة الحبال والامراس لان الهنود اخفاء الحركة لبقون

— او تظن اني ارضى بتعريض الهنود الذين معي للهلكة في سبيل الاتيان بميت لا حراك به ؟

— كيف تقول انهُ ميت ألا ترى انهُ يتحرك فضلاً عن اني سمعتُ صراخهُ . انظر انظر اني اعطي مئة فرنك للهندي الذي ينزل اليهِ وينجدهُ : لا بل اني ابذل مئتي فرنك في سبيل نجاتهِ . ولا يعرف قيمة الاخطار الا من عاناها مثلي

اما صاحب البرنيطة فاخذ يتبرم من العاقة التي حصلت لهُ . ولكن الهنود لما رأوا بريق الذهب طمعوا في احرازهِ ولم يكن بدٌ لصاحب البرنيطة من الرضى بما حكمت بهِ الظروف

واخذ ثلاثة من الهنود ينظرون الى حافات الهاوية فاحصين كيف يمكنهم النزول . وكان وقتئذٍ انَّ المعلَّق في الفضاء تنهَّد لآخر مرَّة وتحرَّك ولم يكن معلَّقاً في الصخر الا بطرف ثوبهِ

وبعد ان نقَّب الهنود عن موضع يستطيعون منهُ النزول عثروا اخيراً على شبهِ سلَّم طبيعيَّة فربطوا في الصخر حبلاً قوياً وتمسَّك بهِ احدهم ونزل بغاية الاحتراس . وكان الجسم يدوس في الهواء . وفي كلِّ لحظة يتوهَّم الناظر انهُ سيسقط في الهاوية . وكان المشاهدون من أعلى جالسين سكوتاً كأنَّ على رأسهم الطير . اخيراً توصَّل الهندي بعد الجهد الى حيث كان الجسم معلَّقاً وربطهُ بحبل كان قد استصحبهُ ورفعهُ اليهِ واخذ يجرُّهُ شيئاً فشيئاً صاعداً بهِ الى ان اوصلهُ الى فوق حيث كان الكلُّ ينتظرونهُ بذاهب الصبر . ولكن لم يكن في الجسم ادنى دليل على الحياة فقد كان الوجه اصفر والشفتان زرقاوين متقلصتين والصدر بارداً

اما المسافر فانحنى واضعاً اذنهُ على القلب فسمع لهُ نبضاناً خفيفاً فصرخ قائلاً : « انهُ حيّ » . واذ ذاك اقبل الكلُّ يفركون الجسم بشدَّة وفصل احدهم اسنانهُ المشتبكة وسقاهُ قليل من العرق وما طال الأمر حتى تنفَّس ثم فتح عينيهِ ورفع رأسهُ . ولما وقع بصرهُ على صاحب البرنيطة صرخ صرخةً عظيمة وعاد الى الغيبوبة عن الحس

(ستأتي البقيَّة)